الـزائــرون

الياس ادرّيس

اجسام البشر المتعبة تلتصق بالمقاعد الخشبية المتآكلة . الريح تهب بقوة ، سوط الحوذي يرتفع نحو الاعلى ويدور ، يدور فتسرع الجياد منعثرة في أحجار كبيرة وصغيرة ، متناثرة في الطريق المعبد الطويل ، من حين لآخر تمر سيارات وشاحنات عكس اتجاهنا فتنحرف الجياد بتلقائية نحو أقصى اليمين . ربما تعلمت ذلك من فعل الممارسة اليومية والعادة المكرورة الرتيبة . ربما تفعل ذلك عن طريق اشارات وعلامات ورموز خاصة تصلها من الحوذي . يمسك الحوذي السوط بيده المزرقة من فعل البرودة ، يفرقعه في الهواء فتعود الجياد المتعبة الى سيرها الطبيعي وسط الطريق المعبد .

دخان السجائر الكثيف يطرد من الافواه الخمسة ، يتشكل كثيفا امامنا ، ينزل بطريقة دائرية مثيرة ، ثم يتصاعد في الهواء ببطء ليعلن عن سياع شيء ما ، مهم وغير مهم . الوجوه الشاحبة الصفراء أمامي تتناوب النظر الى الطريق ثم الى الجياد ثم الى الحوذي . تنظر اليهم بكسل وتبتلع دخان السجائر الرخيصة . المكان شبه خال الا من أشجار نادرة بعيدة وبعض سيارات انقرضت تماما عندما دارت عربتنا نحو الشمال . الجو موحش مقفر . تمضي العربة وتترك خلفها الاصداء رتيبة تخترق الصمت الاجباري . ندخن ونحاول أن نقول شيئا ما ، نتبادل بضع كلمات وجملا قصيرة وتعليقات خاطفة . . « الجو بارد هذا الصباح . . » يعود الصمت الابدي المفروض ونحس اكثر من ذي قبل بمرارة دخان السجائر وهو يحرق الانفاس، وهو يمر من الانف ثم وهو يخرج بتحد ليضيع مع اشياء كثيرة في السماء . . كنا نعرف ان الجو متكلف الى حد لا يوصف وكنا نحاول أن نقنع انفسنا مفتعلين اسبابا وهمية ، باننا غير مخطئين . . وأن الامور فوق جهودنا المحدودة ، كنت خلال الحديث القليل الدائر بين الوجوه العابسة أركز نظري على السلة التي وضعت فيها بيضا وحليبا وخبزة دقيق وسجائر، الشيء الوحيد الذي يربطهم بعالمنا ، كانوا يطلبون مني أن احضر لهم

أنواعا عادية ، وحين يجوعون في الاضراب عن الاكل ، يستطيعون التدخين فالسجائر هي الخيط الوحيد الرابط بينهم وبيننا نحن الذين لم نتحمل ، لم نستطع . . . (الباب الحديدي يفتح ويغلق ، ليخرج رجل بلباس أزرق مخطط بالابيض ، يدخل ليعود صحبة رجال آخرين بنفس اللباس والهيئة . يفتح بعضهم الباب الجانبي والبعض الآخر يدخن أو يضحك ليظهر أسنانا صلبة بيضاء . يتجمهر الزائرون أمام الباب وندخل بالسلة والسجائر . علبة السجائر تفتح أربع أو خمس مرات قبل أن تصل الى أيديهم . الحليب والبيض والخبز ، تخضع لمراقبة شديدة وصارمة . الاشياء الاخرى ممنوعة . .) .

صياح الديكة في أماكن قريبة يمزق حدة الصمت ويعلن عن مولد يوم جديد .

كنت أترقب لحظة شروق الشمس ـ الاوجه الخمسة الحزينة لا ترحب بالمولود الجديد ، رفعت رأسي وتمتمت بتلقائية :

ـ صباح الخير

ـ صباح الخير

التقت عينانا صدفة . كان فرحا ونشيطا عكس الآخرين ، يسطع من وجهه بريق حاد ، يشع ويضيء ليعلن عن انتصار من نوع ما ، سألت :

ـ أتظن أن الحراس لم يرونا ؟

ـ أعتقد

ـ ألم يسمعوا أقدام جياد العربة وهي تقاوم الليل العنيد ؟

ـ أتمنى ألا يكونوا قد سمعوا شيئا .

ـ والجنود ؟ ألا تعرف أنهم موجودون في كل مكان ؟

ـ أعرف . . . اعرف

ـ واذا حاصرونا ؟ ماذا سنفعل ؟

ـ سنقول لهم بأننا عاديون ، نقدم لهم أوراقنا ونمضي .

ـ والسجاير ؟ والاشياء الممنوعة ؟

ـ سنقول بأنها للبهائم .

ـ للبهائم ؟ الجنود يعرفون أن البهائم لا تأكل البيض وخبز الدقيق والحليب .

ـ سنحاول أن نقنعهم بعكس ذلك .

ـ تظن أنهم سيصدقون ؟

ـ لا يهم . !

العربة تمضي في حزم مع الشارع الذي يتآكل تحت دراجتيها الخلفيتين وتحت أرجل الجياد الجائعة . الرجل الذي أمامي يقرأ

جريدة الصباح . يوقف الحوذي العربة ويطلق تنهيدة طويلة ليستريح . الجواد الاحمر ينقر بقدميه الاماميتين ويهز راسه في خفة بينما الاخر يتابع حركاته باهتمام . أشعة الشمس تلاحق بقعة الظلال وتملأ المكان ضياء . يتوقف الزمن عند هذه اللحظة ويتمدد ، الساعة قابلة لان تكون الثامنة أو التاسعة أو حتى الحادية عشرة . الرجال الذين أراهم الآن يدخنون ويحتسون كؤوس القهوة في صمت .

فجأة ومن حيث لا ندري يقف الجندي الاشقر العنيد ويأمر الحوذي بأن يمضي خلفه ، يقفان معا جنب العربة . تملؤنا الحيرة والدهشة والتساؤل . يشير الجندي بأصبعه الغليظة نحوي ، أتقدم نحوه ، خطوة . خطوتين ، ثلاث خطوات ، أشقر ، قصير ، عمارة من حجر صلب ، ابتسامة ساخرة خبيثة ، سألني :

ـ السلة سلتكم ؟

لم أجبه

ـ البيض والحليب وخبزة الدقيق ؟

لم أجبه

ـ ألا تعرف حضرتكم انها أشياء ممنوعة ؟

لم أجبه

ـ وانها غير صالحة صحيا للسجناء ؟

لم اجبه ، أمرني :

ـ اجمع واتبعني

لم أجبه

دخان السجائر يحبو نحو الاعلى في انهزام . وتمضي العربة في الطريق الطويل بايقاع مميت مرعب . لهيب أشعة الشمس يلسع الوجوه المتعبة . نفس الطريق كل يوم . نفس الرحلة . نفس الحراس والجنود والعسس . ثم لا تلبث أن نعود مع المساء الى القرية المشلولة ونتحدث عن أشياء غريبة ولقاءات وهمية تمت ولقاءات سوف تتم . ثلاث سنوات ونحن نبحث عن بصمات ووجوه تشبه وجوههم . كانت امي الشخص الوحيد الذي لا يريد أن ينسى ، تترك القرية أياما وتذهب لتصيح في المباحث والمحاكم . . تمر على الذين تعرفهم ولا تعرفهم وتسأل . . وتمضي العربة بعد لقاء قصير وبعد تفتيش دقيق في علبة السجائر وفي المأكولات . الباب الحديدي المغلق ينفتح مرة واحدة كل ثلاث سنوات ، يظهر رجل ببذلة صوفية أنيقة وزرقاء مخططة بالابيض . . . ومع ذلك يبتسم الآخر للزائر !

6 يناير 1978 — الياس ادريس